جامعة محمد الخامس بالرباط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
Université Mohammed V de Rabat
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Mohammed V University in Rabat
Faculty of Letters & Human Sciences

اللسانيّ linguist

مجلّة فصليّة دوليّة محكّمة متخصّصة في اللسانيّات تصدر عن كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة

جامعة محمّد الخامس بالرباط

المجلد (2) - العدد (1)

ISSN: 2665-7406
E-ISSN: 2737-8586

www.the-linguist.com

اللساني linguist
مجلّة فصليّة دوليّة محكّمة متخصّصة في اللسانيّات تصدر عن كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
جامعة محمّد الخامس بالرباط

مجلة اللساني – المجلد 2 – العدد 1

Dépôt Légal: 2019PE0001
ISSN: 2665-7406 (Online)
E-ISSN: 2737-8586 (Print)

البريد الإلكتروني للمجلة

linguist@linguist.ma
linguistflshr@gmail.com

الموقع الإلكتروني للمجلة

https://linguist.ma

linguist اللساني
مجلة فصلية دولية محكمة متخصصة في اللسانيات تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس بالرباط

مجلّة فصليّة دوليّة محكّمة متخصّصة في اللسانيّات
تصدر عن كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
جامعة محمّد الخامس بالرباط

المدير الإداري للمجلة
أ.د. ليلى منير
عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

المدير المسؤول ورئيس التحرير
أ.د. حافظ إسماعيلي علوي

الهيئة العلمية الاستشارية

أ. د. أحمد المتوكل (المغرب)
أ. د. حسن حمزة (لبنان/ قطر)
أ. د. حمزة بن قبلان المزيني (السعودية)
أ. د. سعد مصلوح (الكويت/ مصر)
أ. د. صالح بلعيد (الجزائر)
أ. د. عبد الرحمن بودرع (المغرب)
أ. د. عبد الرزاق بنور (تونس)
أ. د. عز الدين المجدوب (تونس)
أ. د. مبارك حنون (المغرب)
أ. د. محمد البكري (المغرب)
أ. د. محمد الرحالي (المغرب)
أ. د. محمد العبد (مصر)
أ. د. محمد غاليم (المغرب)
أ. د. مرتضى جواد باقر (العراق)
أ. د. مصطفى غلفان (المغرب)
أ. د. مولاي أحمد العلوي (المغرب)
أ. د. ميشال زكريا (لبنان)
أ. د. هشام عبد الله الخليفة (العراق)

هيئة التحرير

احمياني عثمان
أمروص نور الدين
بنسوكاس عبد الكريم
بودحيم زكريا
الدرويش محمد
العلمي عبد الكريم
قضيوي وفاء
منير ليلى
أزواغ سفيان
بندحان محمد
بنعياد نعمة
حسبان رضوان
الطاهري عز الدين
العلوي كمال رشيدة
المنديلي سمية
الناصيري حبيبة

البريد الإلكتروني للمجلة
linguist@linguist.ma
linguistflshr@gmail.com
للمزيد من التفاصيل يرجى زيارة الموقع الإلكتروني للمجلة
https://linguist.ma

Dépôt Légal: 2019PE0001
ISSN: 2665-7406 (Online)
E-ISSN: 2737-8586 (Print)

بروتوكول النشر في المجلة

اللساني:

- مجلة فصلية دوليّة علميّة محكّمة متخصّصة في اللّسانيات.
- لغات المجلة هي: العربية والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، والإسبانية، والبرتغالية.
- تقبل المجلة البحوث سواء أكانت تأليفا أم ترجمة، أو مراجعة، شريطة أن يكون البحث المترجم أو الكتاب على درجة كبيرة من الأهمية.

رسالة المجلة:

- الإسهام في نشر ثقافة لسانية عالِمة.
- تطوير البحث اللساني في الثقافة العربية.
- مواكبة مستجدات البحث اللساني وتحولاته المعرفية.
- إطلاع الباحثين والمهتمين على أهم ما يكتب وينشر في مجال اللسانيات.
- الاهتمام بانفتاح الحقل اللساني وحواره مع التخصصات الأخرى بالتركيز على الدراسات البينية.

خصوصية المجلة:

- تنشر المجلة البحوث والدراسات الجادة في مجال اللسانيات.
- تسعى المجلة إلى مواكبة مستجدات البحث اللساني من خلال ترجمة البحوث والدراسات التي تنشر في أهم المجلات اللسانية العالمية.
- إثارة نقاش حول أهم القضايا اللسانية المعاصرة.

شروط نشر البحوث والدراسات:

- تنشر المجلة البحوث الأصيلة التي لم يسبق نشرها أو إرسالها للنشر إلى أي جهة أخرى.
- تكون المواد المرسلة للنشر ذات علاقة باللسانيات، سواء أكانت دراسات وبحوثا نظرية وتطبيقية، أم بحوثا مترجمة.
- تلتزم البحوث بالأصول العلميّة المتعارف عليها.
- تقدَّم البحوث وفق شروط النّشر في المجلّة كما هو منصوص عليها على موقع المجلة.
- لا يقل عدد كلمات البحث عن 5000 كلمة ولا يزيد عن 9000 كلمة، بما في ذلك الملاحق.

شروط نشر مراجعة الكتب:

- تنشر المجلة مراجعات للإصدارات الحديثة، سواء أترجمت إلى اللغة العربية أم لم تترجم بعد.
- يجب أن يراعى في عرض الكتب الشروط الأساسيّة الآتية:

بروتوكول النشر في المجلة

- أن يكون الكتاب المراجع ضمن اهتمامات المجلة.
- أن يبنى اختيار الكتاب على أسس موضوعيّة: أهميّة الكتاب، قيمته العلميّة، إغناؤه لحقل المعرفة، والفائدة من عرضه ومراجعته.
- أن يكون الكتاب قد صدر خلال السنوات الخمس الأخيرة.
- كما يجب أن تراعي المراجعة الشروط الآتية:
- الإشارة إلى عنوان الكتاب، ومؤلفه، وفصوله، وعدد صفحاته، وجهة النشر، وتاريخ النشر.
- التّعريف بمؤلّف الكتاب بإيجاز، وبالمترجم (إن كان الكتاب قد ترجم إلى اللغة العربية).
- الوقوف على مقدّمات الكتاب الأساسية: الأهداف، المضامين العامة، المصادر والمراجع، المنهج، المحتويات...
- عرض مضامين الكتاب عرضا وافيا وتحليلها تحليلًا ضافيا، مع الوقوف على أهم الأفكار والمحاور الأساسيّة، واستخدام الأدوات النقديّة والمنهج المقارن بينه وبين المراجع المعروفة في الحقل المدروس.
- يتراوح عدد كلمات المراجعة بين 2000 و3000 كلمة، وتقبل المراجعات التي يصل عدد كلماتها 4000 كلمة، إذا ركزت على التّحليل والمقارنة.

التوثيق في المجلة:

تعتمد المجلة نظام التوثيق APA (جمعية علم النفس الأمريكية) الإصدار السابع (7)، ويمكن الاطلاع على تفاصيل التوثيق على موقع المجلة، أو موقع الجمعية.

مرفقات ضروريّة للنّشر:

- يُرفق بالبحوث المقدمة للنشر في المجلة:
- البحث الأصل إذا كان البحث مترجما، مع توثيق النص الأصل توثيقا كاملا.
- ملخص البحث باللغة العربية، وآخر باللغة الإنجليزية، لا يقل عن 250 كلمة ولا يزيد عن 300 كلمة.
- جرد للكلمات المفاتيح (لا يقل عن خمس كلمات ولا يزيد عن سبع كلمات)
- سيرة موجزة للباحث (لا تزيد عن 200 كلمة) باللغة العربية واللغة الإنجليزية.
- السيرة الذاتية المفصّلة للباحث.

للاطلاع على تفاصيل أخرى للنشر انظر موقع المجلة.

إجراءات النّشر:

- ترسل جميع المواد على موقع المجلة (**إنشاء طلب نشر**).
- سيتوصل الباحث بإشعار بإرسال بحثه حال استكمال شروط الإرسال.
- تلتزم المجلة بإخطار صاحب البحث في أجل أقصاه عشرة أيام بقبول البحث أو رفضه شكلا، وبعرضه على المحكمين في حالة استيفائه لشروط النّشر في المجلة ومعاييره.

بروتوكول النشر في المجلة

- تُرسل المواد التي تستجيب لمعايير النشر للتحكيم على نحو سري.
- يخبر الباحث بنتائج التحكيم (قبولا أو رفضا) في أجل أقصاه شهر ابتداء من تاريخ إشعاره باستيفاء المادة المرسلة للشروط الشكلية وعرضها على المحكمين.
- إذا رفض البحث فإن المجلة غير ملزمة بإبداء الأسباب.
- إذا طالب المحكمون بإجراء تعديلاتٍ على أيّ بحث؛ يخبر الباحث بذلك، ويتعين عليه الالتزام بالآجال المحددة لإجراء التعديلات المطلوبة.
- تفرض المجلة أن يلتزم الباحث بالتحرير والتدقيق اللّغوي، وفق الشروط المعمول بها في الدّوريّات العالميّة.
- تحتفظ المجلة بحق إعادة نشر البحث بأي صيغة تراها ذات فائدة، وإخطار الباحث بذلك.
- لا يحق نشر أي مادة بعد تحكيمها وقبولها للنشر قبولا نهائيا وإخطار صاحبها بذلك.
- يمكن للباحث إعادة نشر بحثه بعد مرور سنة من تاريخ نشره، شريطة إخبار المجلة بذلك.
- لا تدفع المجلة تعويضا ماديّا عن الموادّ التي تنشرها، ولا تتقاضى أيَّ مقابل مادّي عن النشر.

لا تعبر البحوث المنشورة عن رأي المجلة
ترتيب المواد يخضع لضرورات فنية
يتحمل الباحث وحده المسؤولية القانونية لبحثه

البريد الإلكتروني للمجلة

linguist@linguist.ma
linguistflshr@gmail.com

للمزيد من التفاصيل يرجى زيارة الموقع الإلكتروني للمجلة

https://linguist.ma

شارك في هذا العدد

أ. د. **حافظ إسماعيلي علوي**: أستاذ اللسانيات وتحليل الخطاب في قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الشارقة بـالإمارات العربية المتحدة، وقسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، المملكة المغربية. حاصل على درجة الدكتوراه في اللسانيات من جامعة الحسن الثاني، بالدار البيضاء، المملكة المغربية، عام 2004 تدور اهتماماته البحثية حول اللسانيات، واللسانيات القانونية، وتحليل الخطاب...

أ. د. **خليفة الميساوي**: أستاذ اللسانيات العامة والتداولية وتحليل الخطاب بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية، وبالمعهد العالي للغات بجامعة قرطاج بتونس. حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم اللغوية من جامعة ليون 2 بفرنسا، وحاصل على درجة الدكتوراه في اللسانيات العامة من المعهد العالي للغات بتونس بجامعة قرطاج بتونس 2008. تدور اهتماماته البحثية حول التداولية وتحليل الخطاب والمصطلحية والترجمة.

أ. د. **علي الشبعان**: أكاديمي وباحث متخصص في اللغة العربية وآدابها، مع تركيز على تحليل الخطاب، ومناهج النقد الحديث، ونظريات الترجمة. حصل على درجة الدكتوراه في تحليل الخطاب ومناهج النقد الحديث من جامعة منوبة في تونس. عمل أستاذا مساعدا في جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل في المملكة العربية السعودية وشغل منصب أستاذ مشارك في جامعة القيروان بتونس، ويعمل حاليا أستاذا في كلية الآداب بجامعة الوصل في دبي، الإمارات العربية المتحدة.

أ. د. **عماد عبد اللطيف**: أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب في بقسم اللغة العربية، بجامعة قطر. درس بجامعتي القاهرة المصرية ولانكستر الإنجليزية. مؤسس «بلاغة الجمهور»، وهو حقل معرفي يدرس الاستجابات البليغة للجمهور، ورئيس تحرير مجلة «خطابات». نشر الدكتور عبد اللطيف عشرات المقالات وفصول الكتب في مجلات ودور نشر منها لوهارمتان، وروتليدج، وليدن، وبريل، وأكسفورد، وجون بنجامينز، وغيرها.

أ. د. **مبارك حنون**: باحث وأكاديمي مغربي متخصص في اللسانيات والصوتيات والترجمة. شغل مناصب أكاديمية وإدارية، منها أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس (1982–1995)، وأستاذ بجامعة الأخوين بإفران (1995–2000)، ومدير المدرسة العليا للأساتذة بمكناس (2000–2003)، ومدير أكاديمية جهة

شارك في هذا العدد

سوس ماسة درعة (2003–2010)، وأستاذ التعليم العالي بجامعة محمد الخامس أكدال بالرباط (2010–2013)، وأستاذ بجامعة قطر (2013–2020)

أ. د. محمد الصحبي البعزاوي: أستاذ اللسانيات في قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة الوصل بـالإمارات العربية المتحدة. حاصل على درجة الدكتوراه في اللسانيات من جامعة منوبة، بالجمهورية التونسية، عام 2007 تدور اهتماماته البحثية حول اللسانيات النظرية والتطبيقية، قضايا المعجم، اكتساب اللغة، وتعليمية العربية.

أ. د. مختار زواوي: أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر. باحث ومترجم ومحكم في اللسانيات، والسيميائيات، وترجمة النص القرآني. حاصل على الدكتوراه في السيميائيات من جامعة سيدي بلعباس عام 2012، ويدرس بها مادتي اللسانيات العامة واللغة الفرنسية بقسم اللغة العربية وآدابها.

أ. د. وليد العناتي: أكاديمي وباحث متخصص في اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية. حصل على درجة البكالوريوس والماجستير في اللغة العربية من الجامعة الأردنية، ثم نال درجة الدكتوراه في اللسانيات التطبيقية من الجامعة نفسها. شغل عدة مناصب أكاديمية، منها أستاذ في جامعة قطر وجامعة البتراء في الأردن، وأستاذ في مركز الدراسات العربية بالخارج (CASA) التابع لجامعة هارفارد في الأردن. تدور اهتماماته البحثية حول تعليم العربية للناطقين بغيرها، واللسانيات الحاسوبية العربية، وتحليل الخطاب، واللسانيات الجنائية.

د. عبد الفتاح الفرجاوي: باحث في اللسانيات والنحو التوليدي بالجامعة التونسية، متحصل على الدكتورا في اللغة والآداب العربية، جامعة منوبة، تونس 2004. مهتم بقضايا النحو واللسانيات والمعجم والدلالة.

اللسانيّ Linguist
مجلّة فصليّة دوليّة محكّمة متخصّصة في اللسانيّات تصدر عن كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
جامعة محمّد الخامس بالرباط

شارك في تحكيم مواد هذا العدد

- احميانى عثمان
- البعزاوي محمد الصحبي
- بودرع عبد الرحمن
- الحلوي عبد الرحيم
- حنون مبارك
- الشبعان علي
- الطايفي البرنوصي حسيبة
- العناتي وليد
- غلفان مصطفى
- الميساوي خليفة

فهرس المحتويات

افتتاحية العدد
أ.د. ليلى منير 10
لغة بأكثر من رأس ومآل الازدواجية اللغوية بالمغرب
أ. د. مبارك حنون 11
البحث عن جوهر اللغة
أ. د. مختار زواوي 56
العربية والتعدد اللهجي
د. عبد الفتاح الفرجاوي 82
صيغ الثلاثي المجرد في العربية
أ. د. محمّد الصّحبي البعزاوي 98
تحليل الخطاب
أ. د. خليفة بن الهادي الميساوي 121
في الْحِجَاجِ التَّأْوِيليّ أو كيف تُبعث الخِطابة من رمادها؟...
أ. د. علي الشبعان..... 145
بلاغة الجمهور والمعارف النقدية
أ. د. عماد عبد اللطيف 173
الحقوق القانونية للأقليات اللغوية في الاتحاد الأوروبي
أ. د. حافظ إ. علوي 192
اكتساب اللغة الثانية
أ. د. وليد العناتي..... 212

البحث عن جوهر اللغة

عند رومان ياكبسون وأوجين كوزيريو وفرديناند دو سوسير

أ. د. مختار زواوي

جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر.

mokh_zouaoui@yahoo.fr

https://orcid.org/0009-0009-6718-3001

الملخّص

يروم هذا البحث مقارنة مقاربتي رومان ياكبسون وأوجين كوزيريو لمفهوم «جوهر اللغة» بتصوّرات دو سوسير التي أودعها في عدد من مخطوطاته. ولئن كان دو سوسير كثير اللجوء لهذا المفهوم في دروسه التي ألقاها بجامعة جنيف، كقوله مثلا في دروس السنة الجامعيّة الثالث (1910–1911)، فيما نقله عنه إيميل كنستنتان: «إنّ جوهر اللسان يكمن في اتّحاد فكرة ما بعلامة ما»، فإنّنا فضّلنا لطبيعة هذا البحث الاقتصار على ما خطّه دو سوسير بيده دون غيره ممّا بات يعرف بمدوّنة دو سوسير التي تشمل كلّ ما كتب وألقى من دروس، وما دوّن عنه منها، وما أخرجه شارل بالي وألبير سشهاي في كتاب المحاضرات في اللسانيّات العامّة، وما أودعه رودلف أنغلر وتيليو دو مورو في طبعتيهما النقديّتين من نصوص وتحقيقات. ولقد بات اتّساع المدوّنة يفرض على الباحث الإقرار بنسبية النتائج التي يخلص إليها فلا يركن إلى الاستنتاجات الأخيرة، فقد كشف العثور على الدروس التي ألقاها دو سوسير في نحو اللسان الغوطي بالمدرسة التطبيقيّة للدراسات العليا بباريس خلال السنتين الجامعيّتين (1881–1882) و(1890–1891)، بعدما حققها ونشرها أندري روسو(2018)، أندري روسو عام 2018، عن أنّ اهتمام دو سوسير بمسائل في اللسانيّات العامّة اهتمام مبكّر يعود إلى المرحلة الباريسيّة (1880–1891)، وأنّ نصوصا كثيرة من هذه المرحلة استعان بها في دروسه التي ألقاها بجامعة جنيف. إنّ المقاربة السيميائيّة الدياكرونيّة (التأريخيّة) التي انتهجها رومان ياكبسون، والمقاربة الفلسفيّة الأنطولوجيّة التي انتهجها أوجين كوزيريو، تختلفان عن المقاربة التي اختبرها دو سوسير، فهي مقاربة أشمل تروم التأسيس لمشروع علميّ مستقبليّ ذي أسس إبستيمولوجيّة معلومة.

الكلمات المفاتيح: النشأة والجوهر، الدال والمدلول، اللغة والواقع، اللسان والكلام، الكليّات

SEARCHING FOR THE ESSENCE OF LANGUAGE

R. Jakobson, E. Coseriu et F. de Saussure

Prof. Mokhtar Zouaoui
Djillali Liabès University of Sidi Bel Abbès, Algeria
mokh_zouaoui@yahoo.fr
https://orcid.org/0009-0009-6718-3001

ABSTRACT

The aim of this article is to compare Roman Jacobson›s and Eugène Coseriu›s conceptions of the essence of language with those of Ferdinand de Saussure. Although we can now see that Saussure often used the term essence in his lectures at the University of Geneva, for example, in the third year of his lectures (1910-1911) when he said that ‹[t]he association of an idea with a sign is what constitutes the essence of language›. For example, the discovery of the Cours de grammaire gothique, which Saussure taught for two years (1881-1882) at the École Pratique des Hautes Études in Paris, revealed that he had taken whole pages out of his Paris lectures, put them in envelopes and then transported them to Geneva. As for the approaches of Roman Jacobson and Eugène Coseriu - semiotic and diachronic in the case of the former, philosophical and ontological in the case of the latter - we shall see that they are not similar to those of Saussure. For Saussure, the search for the essence of language was inseparable from the project of creating a new epistemologically grounded linguistic discipline.

Keywords: Genesis-essence, signifier-signified, language-reality, langue-parole, universals

مقدّمة

لسنا نروم من هذه التوطئة ولوج ميدان بحث وتأمّل ليس لنا فيه الكفاية اللازمة، ولا العدّة المطلوبة، وإنّنا نحسب أنّ البحث المقارن الذي أنجزه أريلد أوتكار، «من أجل أنطولوجيّات للّغة. فتجنشتاين وسوسير» (Utaker، 1989، ص. 9)، تحتاج قراءته، لاسيّما ما تعلّق منها بأفكار فتجنشتاين حول جوهر اللّغة، إلى الاستئناس بالمعارف الفلسفيّة التي أودعها في عدد من مؤلّفاته كقوله مثلا في رسالته المنطقيّة الفلسفيّة: «من جوهر الشيء أن يكون هذا الشيء عنصرا مؤسّسا لوضع من الأشياء» (Wittgenstein، 1993، ص. 34)، أو قوله: «إنّ الشكل العامّ للقضيّة هو جوهر القضيّة» (Wittgenstein، 1993، ص. 82)، أو قوله في تحريّاته الفلسفيّة: «يجب، حينما نلفي الفلاسفة يلجؤون إلى ألفاظ من مثل المعرفة والكائن والموضوع والأنا، من أجل إدراك جوهر الموضوع، أن نسأل دائما: هل تكتسي ألفاظهم الدلالة نفسها التي تنطوي عليها في اللّغة التي هي موطنها الأصليّ؟» (Wittgenstein، 1961، ص. 166). كما نحسب أنّ الموقف الذي راهن عليه هايدغر، في كتابه «المنطق بوصفه مسألة للبحث عن جوهر اللغة» (Heidegger، 2008)، حينما جعل من المنطق السبيل الأمثل للانتهاء إلى جوهر اللّغة، عوضا عن استدعاء فلسفة اللغّة من أجل ذلك، يحتاج إدراكه إلى الاستئناس بالمعارف المنطقيّة التي أودعها في مؤلّفاته الأخرى. إنّما نريد بهذه التوطئة التوكيد على أنّ فرديناند دو سوسير لم يكن بدعا من الفلاسفة أو اللغويّين الذين ألهمهم النظر في جوهر اللغة، ولا سدّ السبيل في وجه من جاء بعده منهم، فكثيرون هم أولئك الذين بحثوا عمّا يجعل من اللغة لغة، من فلاسفة ولغويّين، واتّخذوا في ذلك سبلا وطرائق قددا.

ولقد كان رومان ياكبسون وأوجين كوزيريو من هؤلاء الذين خاضوا في مسألة جوهر اللغة فاختلفت تصوّراتهما ومقاربتهما لهذا السؤال؛ إذ في الوقت الذي راح فيه رومان ياكبسون يجعل من العلاقة القائمة بين الدال والمدلول محور هذه المسألة وينحو منحى سيميائيّا، اختار كوزيريو سبيل البحث في الخصائص العامّة التي تشترك فيها كلّ الألسن، ونحا منحى فلسفيّا أنطولوجيّا تداوليّا. ولئن كانت مقاربتيهما في البحث عن جوهر اللغة وجهتي نظر لا تلغي إحداهما الأخرى ولا تتعارضان، فإنّ المقاربة التي انتهجها دو سوسير تختلف اختلافا كبيرا عنهما، لأنّ الجوهر –في تقدير دو سوسير– ينتمي إلى واحدة من الثنائيّات التي تؤسّس لتفكيره اللسانيّ وهي ثنائية

«النشأة والجوهر»، وإنّنا في هذا الشأن نلفيه لا يغادر سنّة فكريّة تتداول هي الأخرى ثنائية «النشأة والجوهر»، ولو في أدبيّات علم آخر من العلوم، وإنّ لنا في غوتلوب فريجه مثالا على ذلك.

سؤال الجوهر عند رومان ياكبسون

عنون رومان ياكبسون (1896–1982) واحدا من مقالاته التي كتبها عام 1966 بالعبارة التي اتّخذناها عنوانا لهذه التوطئة، أي «البحث عن جوهر اللّغة» (Jakobson، 1965، ص ص. 22–38)، وإنّنا نحسب أنّ المسألة التي عالج في هذا المقال؛ أي مسألة العلاقة القائمة بين الصوت والدلالة، أقرب تعبيرا -في تقديره- عن جوهر اللّغة، وتحديدا الصلة التي لا يمكن بموجبها تصوّر الدّال دون المدلول، ولا المدلول دون الدّال، في اصطلاح دو سوسير. ولئن كان ياكبسون سرعان ما استعاض، في بداية مقاله، عن ثنائية الصوت والدلالة بثنائية الدّال والدلول السوسيريّة، فإنّ هذه الثنائية ليست -في تقديره- من ابتكار دو سوسير، بل من نتاج الفكر الرواقيّ، فكتب يقول: لقد انتهى ليونارد بلومفيلد، في كتابه المشهور الذي نشره عام 1933، إلى القول إنّ الأصوات المختلفة تنطوي في الخطاب البشريّ على دلالات مختلفة، وإنّ دراسة الرابطة القائمة بين عدد من الأصوات بعدد من الدلالات هي دراسة اللسان. ولقد كان ولهالم فان همبولدت، مائة عام قبل ذلك، يردّد بأنّ بين الصوت والدلالة اتّصالا واضحا، إلاّ أنّ الاتّصال هذا لم يحظ بالعناية الكافية، وكثيرا ما بقي مبهما. لقد ظلّ هذا الاتّصال، منذ العصور القديمة، مسألة مؤرّقة لعلم اللّغة، وإنّ إهمال اللغويّين لها في الماضي القريب يفسّر مقدار الثناء الذي كثيرا ما حظي به جديد دو سوسير المزعوم بوصفه أوّل من فسّر العلامة، وخاصّة العلامة الشفويّة، بأنّها وحدة لا انفصام لها بين مكونيْن، الدّال والمدلول، في حين أنّ هذا التصوّر والاصطلاح الذي رافقه، كلّه مأخوذ عن النظريّة الرواقية التي عمرها ألفيْ عام. (Jakobson، 1965، ص. 22)

ليس غريبا أن ينتهي رومان ياكبسون، وغيره من اللغويّين، إلى افتراض تأثّر مباشر لدو سوسير بالفكر السيميائيّ الرواقيّ، أو الجزم به، بالنظر إلى الاقتراض المباشر عن الاصطلاح اليونانيّ الذي يلجأ إليه سوسير من أجل التعبير عن تصوّره لطبيعة العلامة اللسانيّة ومكوّنيْها. والظاهر أنّ ياكبسون يستند في هذا الرأي إلى كتاب المحاضرات في اللسانيّات العامّة الذي أخرجه شارل بالي وألبير سشهاي، مشيرا هذه المرّة إلى أنّ

تصوّر سوسير لطبيعة العلاقة التي تصل الشكل اللسانيّ بدلالته القائم على المواضعة يتّصل بتصوّر يونانيّ، من طريق الأمريكي وايت ويتني، وتحديدا بالتصوّر الذي أودعه أفلاطون في الكراتيل، فكتب يقول في هذا الشأن: إنّ ويتني يُعرّف اللسان في المؤلَّفيْن اللذين عكف على تحريرهما عامي 1867 و1874، بأنّه نسق من العلامات الاعتباطيّة المتواضع عليها. ولقد أخذ سوسير بهذه النظريّة وطوّرها ضمن الطبعة التي أخرجها شارل بالي وألبير سشهاي بعد موته، وفيه يصرّح دو سوسير بأنّ اللسانيّ الأمريكيّ ويتني، مصيب في هذا الشأن: إنّ اللسان قائم على المواضعة، وإنّ طبيعة العلامة اعتباطيّة. (Jakobson، 1965، ص. 25)

ولئن كان ياكبسون قد استند في تحليله إلى كتاب المحاضرات في اللسانيّات العامّة فإنّ مخطوطات سوسير، لاسيّما المخطوط الذي تبدأ فقراته بلفظة (Saussure، 2002، ص ص. 101–119) «item»، والذي يعتقد سيمون بوكي أنّ سوسير كتبه حوالي عام 1891 (Bouquet، 1997، ص. 280)؛ أي أنه مزامن والحال هذه لتحريره لمخطوط «في جوهر اللغة المزدوج»، من بين المخطوطات[1] التي يبرز فيها اقتراض سوسير للمصطلحات اليونانيّة بروزا واضحا، كما يبرز فيه تصوّر دو سوسير للعلاقة، التي لا تنفصم، القائمة بين مكوّني العلامة، بدليل لجوئه إلى مصطلح جديد من أجل تفادي أو التخلّص من شيوع دلالة مصطلح العلامة على الجانب الماديّ منها دون الجانب الفكريّ، فكتب يقول: «إنّ المراد من استعمال مصطلح «sème» إزاحة كلّ ترجيح أو كلّ فصل أوليّ بين الجانب الصوتيّ والجانب الفكريّ من العلامة. إنّه يمثّل كليّة العلامة؛ أي العلامة والدلالة متّحدتيْن في شخصيّة واحدة» (Saussure، 2002، ص. 105).

والظاهر ممّا يسوق ياكبسون في مقاله هذا، من الحجج والبراهين والأمثلة والسياقات العلميّة المختلفة وأسماء المؤسّسين الذين يحتفي بهم فيه، كشارل سندرس بورس ووايت ويتني وإدوارد سابير وغيرهم من اللغويّين والسيميائيّين، أنّ

(1) يبدو أن الاختلاف ما يزال حاصلا بين الباحثين بخصوص تاريخ تحرير هذا المخطوط؛ فبينما يرى رودلف أنغلر، خلافا لسيمون بوكي، أن المخطوط يعود تحريره إلى الفترة (1897–1900)، يعتقد دانيال غمبارار أنه متأخر على هذه الفترة، ويميل فرانكو لو بيبارو إلى هذا الرأي بالنظر إلى «النضج النظري الذي تنماز به الأفكار التي يحتوي عليها» هذا المخطوط. ينظر: (Piparo, 2007, p.140) إذا صحّ هذا الرأي الأخير، فإنّ هذا المخطوط لا تفصله مسافة زمنية كبيرة عن السنة الجامعية الأولى (1907) من سنوات اللسانيّات العامة.

البحث في طبيعة العلاقة القائمة بين مكوّني (أو مكوّنات) العلامة بحث في جوهر اللغة. ويتّخذ السؤال عن طبيعة العلامة اللسانيّة، عند سوسير –في تقديرنا– بعدا أكثر وأعمق، نلمحه في سؤاله عن المماثلة «identité» اللسانيّة. ونكتفي بالتذكير ههنا بما كتبه سوسير في هذا الشأن في «في جوهر اللغة المزدوج»: «لقد اتّضح لنا، ونحن نتحرّى عن المبدأ الأوّل والنهائي لتلكم الثنائيّة الدائمة التي يمتدّ تأثيرها إلى أصغر فقرة من فقرات النحو، والتي يمكن صياغتها صياغتين مختلفتين اختلافا تامّا، متحرّرين من الإنشاء الفاسد، أنّ الأمر منوط دائما بالمسألة المتعلّقة بمعرفة ما هي المماثلة اللسانيّة، من حيث جوهر اللغة» (Saussure، ص ص. 17–18). إنّ الذي يجعل من الألسن ألسنا، على الرغم من اختلافها، وتحوّلاتها التي لا تنتهي عبر الزمن، اقتضاؤها في كلّ حال ومآل، اجتماع عنصريْن غير متجانسين، الدّال والمدلول، ووصلا بين حقلين مختلفين، حقل الأفكار وحقل الصور السمعيّة. وليست وجهة النظر هذه مستندة، في تقدير سوسير، إلى تصوّر مجرّد لطبيعة النسق الذي يتألّف من هذه الوحدات اللسانيّة (أو العلامات) المكوّنة من عنصرين غير متجانسين، بل تستند أيضا إلى تقدير الفرد المتكلّم وحسّه، وهي القاعدة الإبستيمولوجيّة التي ما انفكّ سوسير يطمئّن إليها كلّما وضع مصطلحا أو عبّر عن مفهوم، كما في قوله مثلا: «إنّ التعبير الأوّل عن الحقيقة هو القول إنّ اللسان (أي الفرد المتكلّم) لا يدرك لا الفكرة، ولا الشكل، بل العلاقة القائمة بينهما» (Saussure، ص. 39)، أو في قوله: «إنّ الصوّر السمعيّة التي تشارك في تكوين العلامة لا وجود لها في اللسان الآنيّ. إنّ لها وجودا بالنسبة إلى الفيزيائيّ أو الفيزيولوجيّ، ولا وجود لها بالنسبة إلى اللّغوي أو الفرد المتكلّم. وإذا كانت الدلالة لا وجود لها من دون العلامة، فإنّ العلامة لا وجود لها هي الأخرى من دون الدلالة» (Saussure، ص. 73).

إنّ الفرد المتكلّم، ووعيه، وإدراكه للوقائع اللسانيّة، هو الحكَم الذي يجب –في تقدير سوسير– أن يحتكم إليه من أجل إضفاء صفة الواقع الحقيقيّ على المقترحات العلميّة اللسانيّة، فعبّر عن هذا المعيار بقوله: «معيار: إنّ ما هو حقيقيّ هو ما يدركه الأفراد المتكلّمون، بدرجة أو بأخرى، هو ما يدركونه ولا شيء سواه» (Saussure، 2002، ص. 183)، فإن كان صحيحا أنّ تصوّر سوسير لطبيعة العلامة اللسانيّة بوصفها مؤلّفة من عنصريْن لا انفصام لهما تصوّر استلهمه عن الرواقيّين، فإنّ اقتراضه لهذا لتصور ليس معزولا، أو اقتراضا لذاته، بل هو عنصر مفهوميّ من المفاهيم،

والتصوّرات، المؤسّسة للنسق العلميّ اللسانيّ. ولقد كنّا بمناسبة ترجمتنا لنصوص سوسير في اللسانيّات (سوسير، 2011) أشرنا إلى أمور من هذه المسألة وألمحنا هنالك إلى سعي طلبة سوسير الحثيث إلى إعادة رسم معالم نسقه الفكريّ؛ إذ بات السعيّ إلى ترتيب مقولات سوسير اللسانيّة التي أقامها مقام النظريّات الرياضيّة، من بين أهمّ المسائل التي خاض فيها السوسيريّون الجدد، ولم يكن منطلق هذا السعيّ رغبة في تجاوز تناقضات كتاب المحاضرات في اللسانيّات العامّة الذي لم يحسن التعبير عن نسق دو سوسير اللسانيّ تعبيرا شاملا، منتظما، يضع كلّ مقولة موقعها منه ومن سائر المقولات الأخرى، بقدر ما كان استجابة لرغبة سوسير الذي ألمح، في مناسبات مختلفة، لا نجد لها ذكرا في كتاب المحاضرات في اللسانيّات العامّة، إلى الطابع النسقي (الهندسيّ) الواجب تحقّقه في مجموع النظريّات التي تقيمها اللسانيّات، إذ لا يجب على الباحث أن يقتصر -في تصوّر سوسير- على التعبير عن الوقائع اللسانيّة تعبيرا صحيحا في شكل متوالية من الآراء، بل عليه أيضا أن يجتهد في ترتيب هذه الآراء والتنسيق بينها؛ أي أن تتّخذ شكل نسق هندسيّ.

وعن هذه الضرورة عبّر سوسير في حوار خصّ به ألبير رايدلنغر، قائلا له: إنّ منشأ الصعوبة يكمن في إمكانيّة النظر إلى المسألة من نواح كثيرة، كما هو الشأن بالنسبة إلى عدد من النظريّات الهندسيّة؛ إذ إنّ كلّ شيء متضايف في اللسانيّات القارّة، وسواء رحنا نتحدّث عن الوحدات أو الاختلافات أو التقابلات أو غيرها فإنّ الأمر سيّان. إنّ اللسان نسق محكم، وعلى النظريّة أن تكون كذلك، نسقا محكما. وإنّ هذا لهو الأمر العسير، لأنّ الأمر لا يتعلّق بتقرير أشياء أو نظرات عن اللسان، الواحدة تلوى الأخرى، بل إنّ الأمر منوط بتنظيمها في شكل نسق. (مقابلة شخصية، 1909، يناير 19)

وكان الحوار الذي خصّ به سوسير ليوبولد غوتيي، في السادس من شهر مايو 1911، مناسبة أخرى للتوكيد على الفكرة نفسها، وفيه أسرّ إليه قائلا: «إنّ اللسانيّات تبدو لي في الوقت الراهن كنسق هندسيّ، نفضي فيه إلى نظريّات وجب التحقّق منها، ولكن سرعان ما يتبيّن لنا بأنّ النظريّة 12، هي نفسها، في شكل آخر، النظريّة 33» (مقابلة شخصية، 1911، ماي 6). ثمّ إنّ الثنائيّات التي ما انفكّ سوسير يختبرها في بحوثه حول اللغة والألسن سرعان ما أفضت به إلى افتراض جوهر مزدوج لها، فاللغة لسان وكلام، وعلم اللسانيّات علم موحّد للسانيّات اللّسان ولسانيّات الكلام،

وللّسان تاريخ ووضع قائم، والعلامات دال ومدلول، والعلاقات القائمة بين هذه العلامات من نمطين: ترابطيّ (استبدالي) وتركيبي خطيّ، إلى غير ذلك من الثنائيّات الأخرى. وإنّ المسألتين هاتين؛ أي مسألة النسق العلميّ ومسألة الثنائيّات المؤسّسة له، تدلاّن دلالة واضحة على تميّز سوسير عن أسلافه من الفلاسفة واللغويّين، وعن أولئك الذين جاؤوا بعده. ثمّ إنّنا لو فرضنا جدلا أنّ سوسير، في سعيه كسعي من قبله من الفلاسفة واللغويّين السابقين، في البحث عن جوهر اللّغة، استقى منهم عددا من الثنائيّات، (وهو الافتراض الذي فيه كثير من النظر) فإنّه غالبا ما كان يُعمل آلة التقويم في هذه المقترَضات، فلا يركن إلى صياغتها الأولى حتّى يجد لها المنزلة التي تليق بها ضمن نسقه الفكريّ الذي رام التأسيس له، فيصوغها صياغة جديدة. وليس أوفى حجّة على ذلك تحوّله بثنائية الدال والمدلول، المؤسّسيْن للعلامة، من التقابل القائم بينهما في أدبيّات فلسفة اللغة التقليديّة، إلى التقابل بين العلامة (المكوّنة من الدال والمدلول) والصورة السمعيّة.

سؤال المنهج عند أوجين كوزريو

تختلف مقاربة أوجين كوزريو (1921–2002) في البحث عن جوهر اللغة عن تلك التي انتهجها رومان ياكبسون؛ إذ بينما راح هذا الأخير يكتفي بالبحث في طبيعة العلاقة القائمة بين مكوّني (أو مكوّنات) العلامة وإنزالها منزلة من البحث في جوهر اللغة، رافع كوزريو في مساهمته «أطروحات عشر حول جوهر اللغة والمدلول» (Coseriu، 2011، ص ص. 79–83) التي شارك بها في الكتاب الجماعيّ «الإدراك: العالم واللغة» الذي أشرف عليه دومينيك كيلر وآخرون، الصادر عام 2001، عن أطروحات عشر تحدّد في تقديره جوهر اللغة، وتميّزها عن سائر ملكات الإنسان الأخرى، واستهلّه بالتوكيد على خصوصّية اللغة مقارنة بسائر الملكات المودعة في الإنسان، والخطأ في السعي إلى اختزال هذا الجوهر في واحدة منها، وهي أطروحته الأولى التي كتب بشأنها يقول: إنّ الخطأ الجسيم الذي ما انفكّ تقع فيه معظم نظريّات (أو فلسفات) اللغة، نزعتها إلى اختزال اللّغة في ملكة من ملكات الإنسان الأخرى (أو نشاط من أنشطته الأخرى): كاختزالها في الفهم (الفكر العقلانيّ)، أو العقل العمليّ أو الفنّ. بيد أنّ اللّغة لا تقبل اختزالا في أيّ شيء آخر، وإنّها –على

النحو الذي أحسن هيغل التعبير عنه- أحد البعدين الأساسيّين للإنسان، وأنّ البعد الآخر هو العمل. وإنّ الإنسان لهو الكائن الوحيد الذي يعمل والكائن الوحيد الذي يتكلّم، وإنّه يبني لنفسه بالعمل عالما ملائما لكائنه الفيزيائيّ، ويبني باللّغة لنفسه عالما ملائما لكائنه العقليّ. إنّ اللغّة -من ههنا- فاتحة كلّ إمكانات الإنسان الثقافيّة (بما فيها الفكر الخطابيّ، والعلم، والفلسفة، والشعر). لقد نبّه هيغل -قريبا من هذا المعنى- إلى أنّ اللّغة تنطوي سلفا على كلّ أشكال تطوّر العقل، وأنّ كلّ ما خلا ذلك ممّا هو مرتبط بالخصائص المميّزة للّغة ناشئ عن هذه الواقعة الأساسيّة. (Coseriu، 2011، ص ص. 79-80)

إنّ الأطروحات العشر التي جمع كوزيريو في مساهمته هذه تكاد تكون خلاصة ما اتّفق الباحثون من قبله حول رجحانه، وخاض فيها من قبله الخائضون، وهو إذ يأتي إلى الأطروحة الثانية «اللغة والثقافة» ليقول: «إنّ اللغة نشاط خلاّق، وهي إذن، نشاط «ثقافي» لا حصر له، لكنّها في الآن نفسه شكل من أشكال الثقافة، والقاعدة التي تستوي عليها الثقافة، لاسيّما بوصفها سنّة ثقافيّة» (Coseriu، 2011، ص. 80)، فإنّنا نجد لذكره صدى لما كتب كلود ليفي ستراوس من قبل، في كتابه «الأنثروبولوجيّات البنيوية» عام 1958، حين راح يختبر الصلة بين اللسانيّات والأنثروبولوجيّات من خلال العلاقات التي تنعقد بين اللسان والثقافة، وإنّنا نجد ليفي ستراوس أوفى تعبيرا عن العلاقة المركّبة التي كتب بشأنها يقول: إنّ مسألة العلاقات القائمة بين الثقافة واللغة من بين أشدّ المسائل تعقيدا، وإذ يمكننا النظر أوّلا إلى اللغة بوصفها نتاج للثقافة -وإنّ اللسان المستعمل في جماعة لسانيّة ما يعكس الثقافة العامّة لتلك الجماعة-، فإنّ اللغة، بمعنى آخر، جزء من هذه الثقافة وعنصر من عناصرها، استئناسا بالتعريف الذي يرتضيه لها تايلور؛ إذ إنّ الثقافة لديه مجموعة مركّبة تضم الأدوات، والمؤسّسات، والمعتقدات، والعادات، واللسان. لكنّ المسائل تختلف باختلاف وجهات النظر التي نتبنّى، وإنّ العلاقات التي تنعقد بين اللسان والثقافة لا تقتصر على ما ذكرنا من تلك المسائل، بل يمكننا النظر إلى اللغة أيضا بوصفها شرطا للثقافة، وذلك لاعتبارين اثنين: أوّلا لاعتبار دياكرونيّ؛ لأنّ اللسان هو الوسيلة الأولى التي يكتسب بها الفرد ثقافة الجماعة التي ينتمي إليها، وإنّ تعليم الأطفال وتربيتهم وتوبيخهم والثناء عليهم إنّما يكون كلّه بالكلام، وإنّ اللسان -ثانيا- إن نحن

أعملنا وجهة نظر تنظيريّة عامّة، شرط من شروط الثقافة التي تنطوي على معماريّة شبيهة بمعمارية اللسان، فكلاهما قائم على التقابل والتضايف؛ أي على مجموعة من العلاقات المنطقيّة. (Strauss، 1958، ص ص. 78–79)

ولقد أحسن كوزيريو بوصف اللغة (أو الألسن عموما) سنّة ثقافيّة، فهذا الوصف يلخّص –في تقديرنا– الإرث الثقافيّ التي تورّثه الألسن إلى الأجيال اللاحقة، وإنّنا نشير بهذا الوصف إلى البعد الإثنوغرافيّ الذي ألمح إليه سوسير في رسالته التي بعث بها إلى صديقه أنطوان مايّي، وفيها أسرّ إليه بالقول: «إنّ هذا الجانب –الذي يكاد يكون إثنوغرافيا– هو الذي يبقى عندي محلّ عناية»، ونستعير –لأجل ذلك– عن دان سبربر، مؤسّس التداوليّات المعرفيّة مع دايدر ويلسون، تعريفه للإثنوغرافيّات؛ إذ يقول: «إنّ الإثنوغرافيات التي تعنى بدراسة الوقائع الاجتماعية الثقافيّة ضمن جماعة خاصّة مادّة علميّة تأويليّة نشيطة متجدّدة، وهي تختلف عن الأنثروبولوجيّات التي تنتهج المقارنة من أجل تفسير تنوّع الثقافات الإنسانيّة» (Sperber، 1982، ص. 16).

وإنّنا إذ لا نجد سوسير يخوض، في كتاباته التي نتوفّر عليها، في مسألة العلاقة القائمة بين اللغة والثقافة، فإنّنا نجده يلامس هذه المسألة من جانب علاقة اللسان بالأنساق السيميولوجيّة الأخرى، وإنّ ما يقول به فرانسوا راستيي في هذا الشأن يلخّص عمق الإسهام السوسيريّ، فقد كتب هذا الأخير يقول: «إنّ التصوّر المتجدّد للّسان وخصوصيّة العلامات اللسانيّة، على النحو الذي تجليّا لدو سوسير عندما راح يؤسّس لسيميولوجيّات عامّة، لهما دور رئيس في فهم كلّ أنماط العلامات وكلّ الأنساق الثقافيّة» (Rastier، a2020، ص. 31)، وإنّنا نشير في هذا السياق –دون أن نسهب فيه– إلى الأهميّة التي باتت توليها علوم الثقافة للّسانيات السوسيريّة الجديدة، وإنّ ما أورده راستيي من هذه المسألة في خاتمة كتابه «دو سوسير مستقبَلا» (Rastier، b2020، ص. 31) يغنينا، وكان إيميل بنفنست قبله حين ألمح إلى الفائدة التي سيجدها علم الثقافة في الاحتذاء بلسانيّات سوسير كتب يقول: يبدو لنا من الضروريّ التفريق بين نمطين من الظواهر: بين المعطيات الفيزيائيّة والبيولوجيّة التي تُبرز طبيعة «بسيطة» (مهما كانت درجة تركّبها) [...] والظواهر المتّصلة بالمحيط الاجتماعيّ للإنسان التي لا يمكن وصفها بأنّها معطيات بسيطة، أو التعرّف عليها في إطار طبيعتها الخاصّة، فهي دائما ما تكون مزدوجة نتيجة ارتباطها بشيء آخر، مهما كان ما تحيل إليه. إنّ الواقعة الثقافيّة ليست واقعة ثقافيّة إلاّ بقدر إحالتها إلى شيء

آخر، وحين يأتي على الإثنوغرافيّات يوم تصبح فيه علما قائما فإنّها ستستند إلى هذا الطابع الأساسيّ، فتبلور ثنائياتها الخاصّة استئناسا بالنموذج الذي صاغه سوسير من أجل اللسان، دون أن يكون بالضرورة ثمّة تطابقا بينهما. وليس لأيّ علم من علوم الإنسان أن ينأى عن التفكير في موضوعه، وعن موقعه من علم الثقافة العامّ؛ لأنّ الإنسان لا يولد في الطبيعة بل يولد في الثقافة. (Benveniste، 1966، ص. 44)

إنّ الخاصّية الثالثة التي تؤسّس لجوهر اللغة تكمن -في تقدير كوزيريو- في اتّصافها بكليّات خمس أوّليّة واثنين آخران ثانويان، فأمّا كليّاتها الخمس الأوّليّة فهي الإبداع والتدلال والغيريّة، وأمّا الكليّتين الأخريين الثانويّتين فهما التاريخيّة والماديّة. ولقد أحسن كوزريو التعبير عن استدعاء هذه الكليّات بعضها ببعض، واقتضاء إحداهن للأخريات، حين كتب يقول: إنّ كليّة الإبداع خاصّية تتّصف بها كلّ أشكال الثقافة، وإنّ اللغة واحدة من هذه الأشكال التي تنتج المدلولات؛ أي العلامات ودلالاتها، ومن ههنا كليّة التدلال فيها. لكنّ العلامات لا تُنتج إلاّ من أجل الآخر (أي الغير) ومن ههنا كليّة الغيريّة فيها، وإنّ اللغة بهذا المعنى تعدّ تمظهرا بسيطا للغيريّة، وتجليّا للكائن من أجل الآخر. وإذ تنتج كليّة التاريخيّة عن كليّتي الإبداع والغيريّة، ويراد بها القول إنّ تقنيّة النشاط اللسانيّ تبرز دائما في شكل أنساق تقليديّة خاصّة بجماعات تاريخيّة، وهي الأنساق التي يصطلح على تسميتها ألسنا، تنجم كليّة الماديّة عن كليّتي التدلال والغيريّة؛ إذ لمّا كان التدلال واقعة من وقائع الوعي احتاجت، حتى تكون موجّهة للآخر، إلى أن تكون ممثّلة في العالم المحسوس بدوّال ماديّة. صحيح أنّ هذا الوصف ينطبق أيضا على سائر الأنشطة الثقافيّة الأخرى التي -كما نعلم- إنّما تتشكّل في الوعي وتحتاج إلى أن تمثّل في الواقع المحسوس، إلاّ أنّ ماديّة اللغة تختلف عن سائر ماديّة الأشكال الثقافيّة الأخرى؛ لأنّها ماديّة خاصّة للسان بعينه، وإنّ الأمر سيّان بالنسبة إلى كليّة التاريخيّة الخاصّة بالأنساق الثقافيّة الأخرى؛ إذ الأساليب الفنيّة مثلا ليست شبيهة بالألسن. (Coseriu، 2011، ص. 80)

لقد عنيت اللسانيّات، شأنها شأن عدد من دوائر الفكر الإنسانيّة الأخرى، بمسألة الكليّات، وإنّ هذه المسألة تجد منشأها في التفكير في الخصائص التي تشترك فيها الألسن جميعها، وهو مشروع تفكير سرعان ما يقود إلى لسانيّات عامّة تتّخذ من ملكة اللغة (والألسن في تماثلها على الرغم من تعدّدها واختلافها) موضوعا لها، وإنّنا إذ نحيل إلى كتابٍ لعنوانه دلالة خاصّة في هذا السياق، وهو كتاب روبير مارتن

«لسانيّات الكليّاتيّ» (2016)، فإنّ سوسير لم يكن يعنى بالكليّات من معناها الفلسفيّ أو الأنطولوجيّ، بل نلفيه يستعمل الصفة المشتّقة من الاسم، أي كليّاتي «universel»، على النحو الذي دوّن عنه إيميل كنستنتان في دروسه في اللسانيّات العامّة التي ألقاها خلال السنة الجامعيّة الثالثة (1910–1911)؛ إذ نقل عنه قوله: إنّ اللسانيّ يتعذّر عليه البدء بدراسة أي شيء ما خلا دراسته لتنوّع الألسن، فهو ملزم بدراسة الألسن أوّلا، وكلّ أمكن من هذه الألسن، وأن يوسع من آفاق دراسته هذه قدر ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وإنّ هذا لسبيلي الذي أمضي فيه. إنّ دراسة هذه الألسن والاجتهاد في ملاحظتها تمكّن اللسانيّ من استخلاص الخصائص العامّة، فيُبقي على ما هو جوهريّ وكليّاتي منها ويدع ما كان منها خاصّا وعرضيّا، ليجد نفسه إزاء مجموعة من التجريدات التي هي اللسان، وإنّنا نلخّص في «اللسان» كلّ ما يمكن ملاحظته في الألسن. (Saussure، 1993، ص ص. 9–10)

إنّ التوظيف البسيط الذي يعمله دو سوسير ههنا لمفهوم «الكليّاتيّ» ينسجم مع طبيعة المنهج التعليميّ الذي انتهجه مع طلبه طيلة دروس السنوات الجامعيّة الثلاث، فلا يحيد عن أسلوبه اللسانيّ البسيط إلى مسائل تستدعي التفكير والتأمّل الفلسفيّ إلاّ بتجريدها من بعدها الفلسفيّ، بل إنّنا نجده في بعض الأحيان يتجاوز هذا البعد الفلسفيّ إلى مستوى من التنظير أشمل يجمع فيه هذا البعد مع البعد اللسانيّ والتاريخيّ والسيكولوجيّ، حين نجده يقول مثلا: إنّ القاعدة الملموسة التي هي الأساس الأوّل والأخير لكلّ نمط من أنماط الاعتبارات اللسانيّة أو التاريخيّة أو الفلسفيّة أو السيكولوجيّة لا تكمن: لا في الشكل ولا في المعنى؛ ولا في الاتّحاد القائم –الذي لا انفصام له– بين الشكل والمعنى؛ ولا في الاختلاف القائم بين المعاني؛ بل تكمن هذه القاعدة في الاختلاف القائم بين الأشكال. (Saussure، 2002، ص. 48)

وباستثناء ذلك، فإنّ دلالة «الكليّاتيّ» في الخطاب اللسانيّ السوسيريّ عادة ما تنصرف إلى دلالتها اللسانيّة العامّة؛ أي الشموليّة، وهي عادة ما تكون صفة توصف بها ظاهرة من الظواهر اللسانيّة، كقوله مثلا بخصوص الإبدال: «إنّ لظاهرة الإبدال «alternance» طابعا كلياتيّا» (Saussure، 2002، ص. 63)، أو قوله: «إنّ مجموعة الاعتبارات التي جئنا على ذكرها تتلخّص –في تقديرنا– في المبدأ الكليّاتيّ للتوالي المطلق للّسان عبر الزمن» (Saussure، 2002، ص. 166).

إنّ الخاصّية الرابعة التي تؤسّس لجوهر اللغة تكمن –في تقدير كوزيريو– في

القول إنّ اللغة هي أساس كلّ اجتماع إنسانيّ، حين كتب يقول: لا شكّ في أنّ اللغة (بوصفها قولا) تواصلٌ، لكنّه من الضروريّ التفريق بين تبليغ شيء ما، وهو واقعة عمليّة قد تُفتقد دون أن يؤثّر ذلك في وجود اللغة، والتواصل مع الآخر وهو الواقعة التي لا وجود للّغة من دونها، (وهي موجودة سلفا في إنتاج المدلولات) لأنّها تتطابق مع غيريّة اللغة. وأمّا ما تعلّق بالجماعة فاللغة ليست مجرّد واقعة اجتماعيّة أو نتاجا للمجتمع مقارنة بالمؤسّسات الاجتماعيّة الأخرى، بل هي -على العكس من ذلك- بما هي عليه من غيريّة، أساس كلّ اجتماع إنسانيّ، ولقد كان أرسطو قد تنبّه إلى ذلك في كتاب السياسة. (Coseriu، 2011، ص. 81)

ولئن كان أرسطو تنبّه إلى أنّ اللغة هي أساس كلّ اجتماع بشري -كما يزعم كوزيري-، فإنّ سوسير هو الآخر أدرك هذا الارتباط الوشيج بين اللغة والمجتمع، ولقد كتب في هذا الشأن يقول: إنّ اللسان -في المقام الأوّل- وسيلة وأداة تؤدّي وظيفتها في كلّ حين وآن، مباشرة ودون قيد: هي وظيفة إفهام الغير. إنّ الممارسات الاجتماعيّة غالبا ما تكون غاية في ذاتها (كالحفلات مثلا)، أو قد تكون وسيلة غير مباشرة، لكنّ وجود اللسان -لكون غاية الإفهام منه غاية لا يمكن الاستغناء عنها في كلّ مجتمع إنسانيّ- هو خصّيصة كلّ مجتمع. (Saussure، 2002، ص ص. 178-179)

ولا نحسب أنّ العلاقة الوثقى القائمة بين اللسان والمجتمع علاقة تغيب عن تقدير الباحثين على اختلاف مشاربهم، فهي من البداهة ما لا يمكن التحوّل عنها، بيد أنّ طرائق التعبير عن هذه العلاقة قد تختلف من باحث إلى آخر، باختلاف وجهات النظر التي يلجؤون إليها، وباختلاف المشاريع العلميّة التي يرومون التأسيس لها، أو أيضا الأنساق الفلسفيّة التي يطمحون إلى إنشائها. وإنّنا لا نحسب -لأجل ذلك- أنّ ثمّة اختلافا بين سوسير وكوزيريو في التعبير عن علاقة المجتمع باللسان إلاّ بقدر ما تبديه العبارتان «أساس كلّ اجتماع إنسانيّ» و«خصّيصة كلّ مجتمع» من اختلاف باختلاف الخطاب العلميّ الحجاجيّ الذي يهتدي به الباحثان في التعبير عن هذه العلاقة.

وبعدُ، فإنّ للألسن -في تقدير كوزيريو- وظائف وغايات أخرى، وإنّ وظيفتيها الأساسيّتين هما التسميّة والقول («onomázein» و«légein» لأفلاطون)؛ أي ما يطابق إلى حدّ ما المعجم والنحو. لكنّ الوظيفتين تختلفان -عنده- باختلاف الغاية

منهما؛ إذ بينما تقتصر وظيفة التسميّة –في عالم الموجودات– على «تنظيم العالم في أصناف وأنماط» (Coseriu، 2011، ص. 81)، يختلف الأمر حين القول الذي يراد به «إنشاء العلاقات في عالم الموجودات ومعه» (Coseriu، 2011). ويكاد يكون هذا التفريق الذي يقيمه كوزيريو بين التسميّة والقول تفريقا قريبا من التميّيز الذي يعمله سوسير بين اللسان والكلام، إلاّ أنّنا لا نضع هذا التفريق المنزلة الفلسفيّة التي ينزله كوزيريو فيها، على الرغم من أنّه مشروع لنا مناقشة كوزيريو في مسألة إسناد وظيفة «تنظيم العالم في أصناف وأنماط» إلى التسميّة، ولا نجد له مبرّرا في الجمع في هذه الفكرة بين التسميّة والمعجم، لأنّنا إذ نضع المعجم من جانب اللسان، فإنّنا نضع التسميّة – خلافا له – من جانب الكلام، وهي –في تقديرنا– فعل من أفعال الكلام وإنّ الأشياء لا تستدعى في ذاتها، بل عادة ما تستعدى في سياق قول معلوم. صحيح أنّ المعجم هو المخزون الذي يلجأ إليه الفرد المتكلّم من أجل تكوين الملفوظات من الكلام التي يريد بها الإفهام عن نفسه، إلاّ أنّ هذا المخزون ليس له –في تقدير سوسير– علاقة مباشرة مع علام الموجودات، بل يتّصل به عن طريق الكلام لا غير، وإنّ العلاقة التي يقيمها سوسير بين اللسان والمعجم لهي من هذا المنظور، ولقد دوّن عنه إيميل كنستنتان قوله في هذا الشأن: إنّ لنا في اللسان مجموعة من العلامات التي يمكن استدعاؤها، لكنّ العلميّة هذه لا تتمّ إلاّ في الكلام، وإنّ هذه العلامات في وجودها الكمونيّ علامات حقيقيّة (مودعة في شكل صور فوتوغرافيّة في الدماغ). ولا يقتصر اللسان على كونه من طبيعة ملموسة، بل هو فضلا عن ذلك من النوع الذي تحسن دراسته دراسة مباشرة، مثله كمَثل الفراشات التي جمعت في صندوق. ويمكننا القول بالنظر إلى هذا الطابع إنّ المعجم والنحو صورة مقبولة، وصالحة لما هو موجود في اللسان. (Saussure، 1993، ص. 71)

لكنّ وظيفة القول لا تقتصر –في تقدير كوزيريو– على «إنشاء العلاقات في عالم الموجودات ومعه»، لأنّ الوظيفة هذه مرتبطة بجانبه الدلاليّ وهو الجانب اللغويّ الحصريّ من القول، «لأنّ هذا الأخير من جانبه المادّي علمٌ، وممارسة، وإحساس، وفنّ (شعر)، وغير ذلك» (Coseriu، 2011، ص. 81). ولعلّ هذا التفريق البديع الذي يقيمه كوزيريو بين الوظيفة التبليغية التواصليّة التي يقرّها للألسن ووظيفتها الإبداعيّة التي تتجلّى في العلم من حيث خطابه الحجاجي، وفي الشعر من حيث خطابه التخيّيليّ، وفي المسرح من حيث كونه ممارسة اجتماعيّة لسانيّة، وفي الرسائل

والشهادات والسير من حيث تعبيرها عن الذات، تفريق لا يغادر التفكير الفلسفيّ الذي ألمحنا إليه منذ قليل، وهو التفريق الذي يأتي بكوزيريو إلى فحص مضمون القول، للتميّز فيه بين التعيّين (أو الإحالة) والمدلول والمعنى. وهو -بخصوص التفريق بين دلالة الألفاظ ووظيفها التعيّينيّة، لا يكاد يغادر سنّة من قبله من فلاسفة اللغة الذين دأبوا- منذ مقال غوتلوب فريجه المشهور «المعنى والإحالة» (Frege، 1892، ص ص. 22-50) - على الفصل بينهما.

لا نحسب أنّنا نغالي لو زعمنا أنّ مسألة الإحالة باتت منذ مطلع القرن العشرين من بين أكثر المسائل الفلسفيّة واللسانيّة تداولا بين الباحثين، ولئن كانت اللغة منذ أقدم العصور موضوع نظر عند الفلاسفة والمفكّرين، وأنّ مسألة الإحالة ارتبطت من عصر إلى آخر بمسائل فلسفيّة ومنطقيّة أخرى، فإنّها أصبحت في إطار الفلسفة التحليليّة مسألة قائمة بذاتها ذات شأن كبير، لاسيّما بعد أن فصل فريجه بينها وبين المعنى في مقاله الذي ألمحنا إليه، ولم تعد الأهميّة التي باتت توليها لها البحوث الفلسفيّة تقتصر على مجال بعينه من مجالات الفلسفة المتعدّدة، و«لم يعد الاهتمام بنظريّات الإحالة حكرا على فلسفة اللغة، بل إنّ فرضيّات هذه النظريّات تكاد تكون فرضيّات حاسمة لكلّ مجالات الفلسفة، بما فيها فلسفة الذهن، وفلسفة العلوم، وفلسفة العرق» (Mallon وآخرون، ص. 332).

إنّ عددا من المؤلّفات التي وضعها اللسانيّون والفلاسفة من بعد فريجه اتّخذت من مفردة الإحالة أو ما يشاكلها عنوانا لها، كما فعل ماريو بونغ في كتابه «الدلاليّات: المعنى والإحالة» (Banjo، 1974)، أو فرانسوا ريكاناتي Récanati في كتابه «الإحالة المباشرة. من اللغة إلى الفكر» (1993)، أو كريبك صول في كتابه «الإحالة والوجود» (1993)، أو ألان بارجيه في كتابه «المصطلحات والصدق. الإحالة المباشرة والإحالة السابقة» (2002)، أو جيرولد كاتز في كتابه «المعنى والإحالة والفلسفة» (2004)، أو نيك أونفيلد وتانيا ستيفرز في الكتاب الجماعيّ الذي أشرفا عليه «الإحالة إلى الأفراد أثناء التفاعل. آفاق لسانيّة، وثقافيّة واجتماعيّة» (2007)، أو بربارا أبوت في كتابها «الإحالة» (2010)، أو كايت دونولان في كتابها «بحوث في الإحالة واللغة والذهن» (2012)، أو إيميليا هيلغار وآخرون في الكتاب الذي أشرفوا عليه «المعجم والإحالة» (2020)، أو غيرهم من الباحثين الذين تناولوا المسألة من حيث علاقتها باللغة، والفكر، والذهن، والواقع، والصدق، وغيرها من المسائل الفلسفيّة واللسانيّة

الأخرى. وتكاد المؤلّفات التي وضعت لهذا الشأن تتّخذ من مقال فريجه السالف الذكر مرجعا الأوّل الذي تنطلق منه من أجل النظر في هذه المسألة، بل إنّ من المؤلّفات ما خصّص كلّه لتحليل آراء فريجه حولها، ونذكر منها كتاب وُولفغانغ كارل «نظريّة فريجه حول المعنى والإحالة. أصولها وامتداداتها» (1994)، والكتاب الجماعيّ الذي أشرف عليه جون بيرو وبيتر كوتاكتو «فريجه: المعنى والإحالة بعد قرن من الزمن» (1995)، وكتاب كيفن كليمون «فريجه ومنطق المعنى والإحالة» (2002)، وكتاب مارك تيكستور «فريجه. في المعنى والإحالة» (2011)، وكتاب جون بيري «منعطف فريجه. بحث حول المعنى والإحالة والصدق» (2019).

ولئن باتت أكثر أدبيّات الفلسفة واللسانيّات الحديثة لا تنفكّ تحيل إلى مقال فريجه الذي ألمحنا إليه كلّما أرادت الخوض في مسألة المعنى والإحالة، فإنّ فريجه لم يكن أوّل الباحثين الخائضين فيها، وإن كنّا ذكرنا أنّها كانت، وما تزال، أكثر المسائل الفلسفيّة واللسانيّة تداولا بين الباحثين، فذلك لأنّ اللغة كانت، منذ التفكير الفلسفيّ القديم (عند أفلاطون وأرسطو مثلا) أداة يحال بها إلى العالم الخارجيّ، وكان هذا التصوّر الفلسفيّ يستند إلى عدد من الخصائص التي أسندت للغة، فاللغة كانت في تصوّر هؤلاء تتألّف من أسماء تحيل إلى أشياء في العالم الخارجيّ، ووظيفتها التعبير عن هذا الواقع الخارجيّ. ولذا فإنّ المعنى وجب البحث عنه في هذه الإحالات؛ أي أنّ دلالات الأسماء تتطابق مع ما تحيل إليه حتى يغدو المعنى -في تقديرهم- ذا أصل خارجيّ. ولم تكن الفلسفة القديمة تعنى بطبيعة المراجع الخارجيّة ولا بجوهر اللغة المرجعيّ، بل تنظر فيما إذا كانت هذه المراجع مُثلاً، أو أحاسيس، أو أشياء ماديّة، أو أفكارا، أو غير ذلك (Hottois، 2002، ص ص. 159-160).

لكنّ التصوّرات التي ورثتها العصور القديمة عن الفلسفة اليونانيّة بخصوص مسألة الإحالة لم تعد تستهوي فلاسفة القرن العشرين، فقد تطوّر النظر فيها في اتّجاهين متقابلين، فأمّا الاتّجاه الإنجليزيّ الأمريكيّ فقد تطوّر نظره إلى الإحالة من العالم الواقعيّ إلى الواقع اللسانيّ من منظور أنّ فلسفات اللغة المختلفة إنمّا هي خطابات لسانيّة واصفة موضوعها اللغة ومختلف تمظهراتها، وأمّا الاتّجاه الأوروبيّ فقد تطوّر نظره صوب رفضها، ووُصفت فلسفة اللغة الأوروبيّة بأنّها فلسفة غير إحالية؛ إذ بات المعنى، بتأثير من النزعة الجدليّة والفينومينولوجيّات والتأويليّات واللسانيّات البنيويّة على وجه الخصوص (بتأثير من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة)،

لا ينشأ –في تقديرها– إلاّ من العلاقات التي تقيمها العلامات فيما بينها، ولا شيء سواها (Hottois، 2002، ص. 160). ولئن كنّا بخصوص مسألة الإحالة إزاء تقليدين أحدهما إنجليزيّ أمريكيّ والآخر أوروبيّ، فإنّ التقليد الأوّل منشأه (من طريق هوسرل وراسل وفتجنشتيان) الأفكار التي أودعها فريجه في مقاله الذي ألمحنا إليه، والتقليد الثاني منشأه كتاب المحاضرات في اللسانيات العامّة، إلاّ أنّ علاقة التقليد الأوّل بفريجه علاقة مباشرة من حيث استنادها – بخصوص هذه المسألة – إلى نصّ من تأليف فريجه نفسه، في حين أنّ علاقة التقليد الثاني بسوسير علاقة غير مباشرة من حيث استنادها إلى نصّ ليس من تأليفه، وما كان ليرتضي إخراجه على النحو الذي نحاه شارل بالي وألبير سشهاي في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامّة.

ولا شكّ في أنّ مقال «المعنى والإحالة» أُنزل هذه المنزلة المهمّة من أدبيّات فلسفة اللغة والمنطق نتيجة الفهم الجديد والتصوّر المحدث الذي أنشأه فريجه حتى بات كالتحوّل العميق في كيفيّات تمثّل العلاقة بين العلامات وما تحيل إليه، وإنّ الباحث لا يُمكنه التحقّق من أصالة مقاربة فريجه إلاّ بالنظر القهقرى فيما أنتجه الفلاسفة والمناطقة وعلماء اللغة من قبل، وإنّ التأريخ لهذه المسألة لا يكاد ينفصم عن مجمل ما أنتجوه من تصوّرات حول اللغة عموما. والظاهر أنّ العلّة الأولى التي استدعت النظر في مسألة الإحالة كونها جزء لا يتجزّأ من السلوك التواصليّ للفرد المتكلّم؛ إذ لا ينفكّ هذا الأخير عن الاستفسار عمن يراد به الكلام من قبيل القول «من تريد بقولك هذا؟» كلّما أبهم أو التبس، وهو في الغالب طلب للمعرفة وزيادة في المعلومات السياقيّة التي من شأنها توجيه فهمه وإدراكه للعلاقة بين القول وما يحال به إليه. وإذا لم يكن من الوجاهة إنكار هذا الواقع ونفي صفة الإحالة التي تتّصف بها العلامات حين استعمالها في الكلام، شريطة التوكيد على هذا الملمح الأخير، أي استعمالها في الكلام، فإنّ ذلك لا يتعارض –في تقديرنا– مع القول إنّ العلامات تلك تفقد خاصيّة الإحالة إن هي باتت خارج الكلام، بمعنى أنّها عنصر من عناصر النسق اللسانيّ الذي لا تحكمه سوى العلاقات التي تقيمها العناصر فيما بينها داخل النسق، قبل أن يتمّ استعمالها في الكلام.

ولقد ظلّت مسألة الإحالة على مرّ العصور موضوع نظر، فاختلفت التصوّرات بشأنها كلّما اختلفت منطلقات الباحثين الفكريّة، وافترقت توجّهاتهم الفلسفيّة والمنطقيّة والسيميائيّة. ولقد لخّص أمبرتو إيكو، في كتابه «العلامة» (1980)،

مختلف التصوّرات التي ورثتها أدبيّات السيميائيّات عن العلامة وموقع الإحالة منها في الشكل الآتي، وكتب بشأنها يقول: إنّ الحسّ السليم -أعدل الأشياء قسمة بين الناس- يوافق هذا التصنيف الثلاثي، لكنّ الاختلاف فيه باد بشأن الأسماء التي أطلقت على أقطابه الثلاثة، وقد يذهب البعض إلى إطلاق تسمية المرجع على ما نصطلح على تسميته/ مدلولا/ وتسمية/ المدلول/ على ما نصطلح على تسميته/ معنى/ ، ولقد ترجم مصطلح «bedeutung» لفريجه تارة بمصطلح «المدلول» أو «الدلالة» وتارة أخرى بمصطلح «الإحالة»، وإنّ هذه الاختلافات تكون أحيانا مجرّد اختلاف في الاصطلاح، ويكون خلفها أحيانا أخرى افتراقا جذريا في التصوّرات. (Eco، 1988، ص. 39)

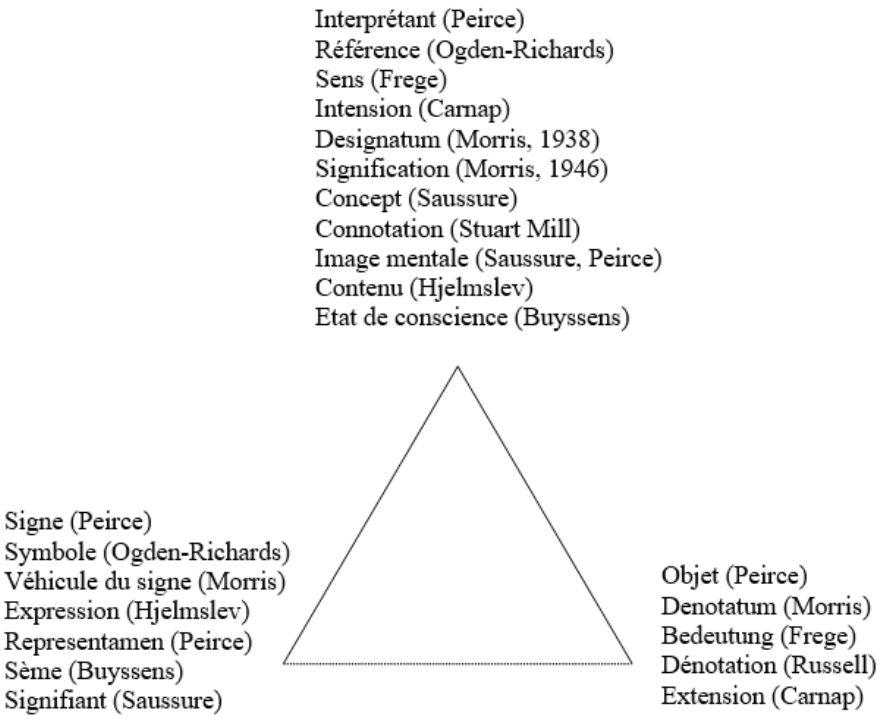

ولو رجعنا إلى العبارات التي اختارها كوزيريو من أجل التفريق بين مفاهيم التعيّين والمدلول والمعنى فإنّنا لا نجده يتحوّل كثيرا عن المألوف في أدبيّات فلسفة اللغة؛ إذ يقول: يجب التميّيز، ضمن مضمون القول المعبّر عنه والمبلّغ، بين التعيين والمدلول والمعنى، فأمّا التعيّين فهو الإحالة الأشياء (أوضاع الأشياء، الحوادث، العلميّات)،

الخارجة عن اللسان (أو بالأحرى الخارجة عن العلامات)، وأمّا المدلول فهو الإمكانيّة الموضوعيّة للتعيّين بوصفها محتواه في علامات اللسان، وأمّا المعنى فهو الغاية من كلّ قول، ومضمون الخطاب من حيث هو خطاب (أو لجزء من الخطاب). ولذا فإنّ التقرير، والدور في الكلام، والإجابة، والسؤال، والاعتراض، والقبول، والاختلاف، والدعاء، (وكلّ ما اصطلح على تسميته الرواقيون بالخطابات «lógoi») هي وحدات معنى، (وليست وحدات دلالة). وإذا كان المعنى، من وجهة النظر اللسانيّة، هو الغاية من الخطاب بوصفه معطى (معبّر عنه) بالمدلول (المعجميّ، والصنفيّ، والنحويّ، والكينونيّ) وبالإحالة، فإنّ إنتاج المعنى تشترك فيه أيضا المعرفة بالأشياء وما يحيط بها. ومن ثمّ فإنّ المدلول هو المحتوى اللسانيّ المحض. (Coseriu، 2011، ص ص. 81-82)

إنّ الكيانات الثلاث التي يستعين بها كوزيريو من أجل ترتيب مفاهيم المعنى والدلالة والإحالة هي إذن، اللسان والخطاب وعالم الموجودات، ومن الواضح أنّه يضع الإحالة من جانب اللسان لا من جانب الخطاب الذي تنضاف في إنتاجه المدلولات المعجميّة، والصنفيّة، والنحويّة، والكينونيّة، وهو بذلك لا ينافس السنّة اللغويّة الفلسفيّة التي توالت العصور على توريثها، ولا ينافس من هذا المنظور أيضا التصوّر التداوليّ الذي يرى بأنّ الخطاب نتاج عوامل لسانيّة وأخرى غير لسانيّة، إلاّ مع اختلاف في الاصطلاح، ففي حين يعبّر عنها كوزيريو بعبارة «المعرفة بالأشياء وما يحيط بها»، يعبّر عنها التصوّر التداوليّ بعبارة «المعرفة بالسياق».

ثنائية النشأة والجوهر

إنّ مقاربتي رومان ياكبسون وأوجين كوزيريو في البحث عن جوهر اللغة وجهتي نظر لا تلغي إحداهما الأخرى ولا تتعارضان، فإذا كان البحث في جوهر اللغة عند ياكبسون بحث في طبيعة العلاقة القائمة بين مكوّني (أو مكوّنات) العلامة وينحو منحى سيميائيّا، فهو عند كوزيريو بحث في الخصائص العامّة التي تشترك فيها كلّ الألسن، وينحو منحى فلسفيّا أنطولوجيّا تداوليّا. وليست الغاية من البحث في جوهر اللغة هي الغاية نفسها التي ينشدها الباحثان، وهما بعد ذلك مختلفتان عن الغاية التي يروم سوسير من بحثه في جوهر اللغة، بدليل التثنية التي يلجأ إليها في تسميته مخطوطه «في جوهر اللغة المزدوج»، ولئن كنّا اقترحنا في غير هذا الموضع تقريبا بين هذه العبارة ومصطلح «الثنائيّات» (السنكرونيّة والدياكرونيّة، اللسان والكلام،

العلامة والصورة الصوتيّة، الدال والمدلول، الشكل والمادّة، المستوى الترابطي والمستوي التركيبي، إلخ)، فإنّنا لم نكن في بحوثنا السابقة ألمحنا إلى مفهوم الجوهر إلاّ من حيث دلالتها التي ينطوي عليها وحده، ولم نكن نفكّر أن نضعه، شأنه شأن كثير من مصطلحات لغة سوسير الواصفة، في إطار ثنائيّة تضفي عليه مزيدا من الوضوح، حتى وقفنا على قول له في واحد من المخطوطات التي نشرها رودلف أنغلر وسيمون بوكي عام 2002، رفقة النصوص الجديدة التي عثر عليها عام 1996، وهو قول لا يمنعنا من أن نفكّر جدّيا في هذه الثنائيّة التي نستخلص من قوله، في مقاله الذي أعدّه بمناسبة تأبين ويتني: «إنّنا ندرك حينها ألاّ وجود لأيّ نمط من أنماط التعميم الممكنة إذا استمررنا في النظر إلى اللسان في نشأته وجوهره في الآن ذاته» (Saussure، 2002، ص. 217)، وهي ثنائيّة «الجوهر والنشأة».

والظاهر من النصّ أنّ الثنائيّة مرتبطة -في هذه الحالة- بعمليّة التعميم التي تقتضيها ضرورة النظر إلى اللغة نظرة عامّة. ولقد برزت هذه الثنائيّة -في هذا النصّ- في سياق المقارنة التي يقيمها سوسير بين اللسانيّات والجيولوجيّا، في القسم الثاني من المقال، الذي تناول فيه سوسير المسائل الآتية مرتبّة على هذا النحو: 1) النحو المقارن، 2) النحو المقارن واللسانيّات، 3) اللغة، مؤسّسة اجتماعيّة، 4) اللسانيات، علم مزدوج، 5) ويتني ومدرسة النحاة الجدد، 6) ويتني باحث في الصوتيّات، وإنّ هذه الثنائيّة تنتمي إلى المسألة الرابعة التي باشرها بالقول: إنّنا نعنى بموضوع مزدوج، وهو مزدوج بحيث لا يمكن التفريق بين طرفيه إن لم نلجأ إلى مقارنة، ففي لعبة الشطرنج، إنّ الخصّيصة التي تتّصف بها مواقع القطع كونها مستقلّة عن المواقع السابقة؛ أي أنّه ليس مختلفا نسبيّا عن المواقع السابقة، بل مختلف تماما عنها، سواء جئنا إلى هذا الموقع من سبيل إلى آخر، وليس للّذي تابع اللعبة منذ بدايتها -في هذه الحالة- مزيّة أكبر من الذي حضر لتوّه، ولن يفكّر أحد في وصف هذا الموقع فيمزج بين ما هو عليه الآن وما كان عليه قبل ذلك، ولو قبل ثوان معدودات. وإنّ هذا لهو المنطلق للنظر في اللسان، فإن نحن أقررنا به أمكننا التساؤل بعد ذلك عن الجانب الذي يكون فيه هذا الموضوع تاريخيّا. إنّ اللسان يبدو، من جهة جوهره، مستعص على التصوّرات التاريخيّة، وكأنّه مندوب للتأمّل المجرّد، على النحو الذي تبديه لعبة الشطرنج. وإنّنا سنبقي على هذه المقارنة بين اللسان ولعبة الشطرنج على الرغم من أنّنا موقنون على أنّها لا تبرز لنا كليّا الطبيعة المركّبة لتلكم السيميولوجيّات الخاصّة

التي تسمّى اللغة، لا من جانب واحد من جوانبها، بل من حيث تلكم الازدواجيّة المزعجة التي تجعل منها عصيّة على الإدراك. (Saussure، 2002)

وإنّ لنا في هذا النصّ قرينة تحدّد لنا -على الأقلّ- أقدم النصوص التي تناول فيه سوسير اللسان من حيث «جوهره»، ونحن لا نغادر بذلك مرحلة السنوات الأربع الأولى من العقد الأخير منن القرن التاسع عشر (1891-1894) التي أنزلناها منزلة السنوات المؤسّسة للسانيات سوسير العامّة، فإذا وضعنا هذا النصّ (والمقال الذي ينتمي إليه وكان سوسير حرّره بمناسبة تأبين ويتني عام 1894) الموضع الذي تنتهي به هذه المرحلة، ووضعنا نصّ الرسالة التي بعث بها سوسير إلى أستاذه إلى غاستون باري بتاريخ 30 ديسمبر 1891، الموضع الذي تبدأ به، وفيها كتب له يقول: إنّني أعتقد أنّه لا وجود لمورفولوجيّات تاريخيّة (أو نحو تاريخيّ)، وليس ثمّة، في المقابل لذلك، من صوتيّات آنيّة. إنّ العلاقة التي تنعقد بين أوضاع اللسان المتوالية تتلخّص، إذا ما نظر فيها بجد، في العلاقة الصوتيّة، وإنّ العلاقة التي تنعقد بين عناصر الوضع الواحد تتلخّص، خلافا لذلك، في العلاقة المورفولوجيّة، ويبدو أنّ ثمّة تقابلا، وعدم توافق، بين المنظور الصوتيّ للسان، الذي يفترض تتابعا وتجرّدا من المعنى، وبين المنظور المورفولوجيّ (النحويّ) الذي يفترض وحدة العصر، وأخذ المعنى، والقيمة، والاستعمال، بعين الاعتبار. وإنّني أسعى إلى اختبار وجهة النظر هذه وأجتهد في تطويرها، ولعله من البديهيّ أنّها تمسّ كلّ المسائل الأوليّة، ولهذا لست أدري متى يسعني الانتهاء من التحليل. (Saussure، 1994، ص ص. 78-79).

قلت إذا وضعنا هذا النصّ الموضع الذي تبدأ به هذه المرحلة فإنّنا سندرك أنّ سوسير ما انفكّ طيلة هذه السنوات الأربع يختبر ضرورة التفريق بين الألسن من حيث كونها أوضاعا قائمة ومن حيث كونها تحوّلاتها عبر الزمن، لينتهي في المقال (وهي نهاية هذه المرحلة) إلى قناعة «ألاّ ثمّة من «لسان» ولا لعلم للّسان إلاّ بشرط أوّلي يتمّ بموجبه التغاضي عن كلّ ما سبق، وتجاهل ما يربط بين الفترات التاريخيّة. وليس ثمّة من لسانيّات إلاّ ما كان خلاف ذلك» (Saussure، 2002، ص. 217).

وليس يخفى على القارئ أنّنا ههنا -مع سوسير- إزاء تصوّراته الأولى التي ستنتهي في دروسه التي ألقاها في اللسانيات العامّة خلال السنوات الجامعيّة الثلاث إلى ثنائية «الدياكرونيّة والسنكرونيّة»، وإنّنا ننزل إذن، ثنائيّة «النشأة والجوهر» منزلة الثنائيّة الممهّدة لها. وإذا سبقت منّا الإشارة إلى قوله «إنّنا ندرك حينها ألاّ وجود لأيّ

نمط من أنماط التعميم الممكنة إذا استمررنا في النظر إلى اللسان في نشأته وجوهره في الآن ذاته»، فذلك لأنّ مطلب التعميم، وهو المطلب الذي يتحقّق بالانتقال من تعدّد الألسن واختلافها إلى الخصائص التي تشترك فيها وتجيز استخلاص مفهوم «اللسان»، ويصبح سؤال اللسان سؤال في «جوهر اللسان» لا في نشأته. ويتكرّر هذا السؤال في موضع آخر من مخطوطات دو سوسير من تلك الفترة، وتحديدا في واحدة من ورقات مخطوطه «في جوهر اللغة المزدوج»، ينبّه فيها إلى عدم تفريقه بين عدد من المفاهيم بقوله: إنّنا لا نقيم فرقا حاسما بين مصطلحات القيمة والمعنى والدلالة ووظيفة الشكل أو استعماله، ولا بين الفكرة بوصفها محتوى شكل ما، وإنّ المصطلحات هذه مصطلحات مترادفة. بيد إنّه يجب الاعتراف بأنّ مصطلح القيمة أحسن تعبيرا من أيّ مصطلح آخر عن جوهر الواقعة، والذي هو جوهر اللسان أيضا، من خلال الإقرار بأنّ الشكل لا يعني وإنّما يساوي، وإنّ هذا لهو الأمر الرئيس. ولمّا كان هذا الشكل يساوي فإنّه يستلزم وجود قيم أخرى. (Saussure، 2002، ص. 28)

ويبدو أنّ ثنائيّة «النشأة والجوهر» ليست من هذا المنظور، أي عبارةً ممهدّة لثنائيّة الدياكرونيّة والسنكرونيّة، عبارة خاصّة باللسانيّات، بل هي ثنائيّة متداولة في أدبيّات الفكر الغربيّ، وربّما كان شيوعها سببا في تحوّل سوسير عنها إلى ثنائيّة الدياكرونيّة والسنكرونيّة، ولقد كان غوتلوب فريجه، لجأ هو الآخر إلى هذه الثنائيّة في حقل آخر من حقول المعرفة الإنسانيّة، وتحديدا في مقدّمة كتابه «أسس علم الحساب» الصادر أوّل الأمر عام 1884، نبّه إلى ضرورة عدم الخلط بين جوهر المفاهيم ونشأتها؛ إذ كتب يقول: إنّ المنهج التاريخيّ الذي يريد اكتشاف نشأة الأشياء ومعرفة الجوهر من خلال النشأة لا شك أنّه يحظى بانتشار واسع؛ لكنّه يبقى على الرغم من ذلك منهجا قاصرا. إنّ السيل العرم إذا تدفّق لا يترك خلفه شيئا خلفه، ولن يكون العالم حينئذ قابلا للمعرفة، وينتهي كلّ شيء إلى حالة من الغموض. ويبدو أنّ البعض معتقدون بأنّ المفاهيم تنشأ في النفس البشريّة كما تنمو الأوراق في الأشجار، ومعتقدون بإمكانيّة معرفة جوهرها بمجرّد فحص نشأتها، بتحديد كيانها بطرق سيكولوجيّة، انطلاقا من طبيعة النفس البشريّة. بيد إنّ التصوّر هذا تصوّر ينحو الذاتيّة، وإن نحن أفرطنا فيه فإنّه يقود بنا إلى التحوّل عن الحقيقة. وإنّ ما ندعوه تاريخ المفاهيم ليس في حقيقة الأمر سوى تاريخ معرفتنا بالمفاهيم أو تاريخ دلالات الكلمات ليس إلاّ. (Frege، 1970، ص. 217)

خلاصة

إنّ الأفكار التي أودعنا في هذا المقال ستبقى أفكارا مؤقّتة لأنّ المفاهيم التي ما انفكّ سوسير يطوّرها عبر كلّ مراحل سيرته العلميّة تلزمنا تتبّع مسار تحوّلاتها من مخطوط إلى آخر، ومن درس إلى آخر، وتجعلنا ملزمين أيضا بمراجعة ما كتبنا بشأنها، فهي في مجملها تعبّر عن مشروع لم ينته. ثم إنّ الفيلولوجيّات السوسيريّة لم تنته بعدُ من إخراج وتحقيق ما يزال مودعا من كتابات سوسير في مكتبة جنيف أو المكتبات الخاصّة، ولسنا نعلم إلى أيّ مدى قد تحدث هذه المودعات في معرفتنا بفكر سوسير من تغيير. وإنّ لنا من هذه التجربة نصيب عانيناه في الاختلاف الظاهر بين الطبعة التي أخرجها رودلف أنغلر وسيمون بوكي عام 2002 من مخطوطات سوسير والطبعة النقديّة التي أخرجها روني أماكير عام 2011، فهما لا تختلفان من حيث ترتيب ورقات المخطوطات وضمّ إحداهنّ إلى الأخريات، بل تختلفان في تفسير عدد من المفردات والجمل.

ولأجل ذلك، يظلّ التصوّر الذي انتهينا من تشكيله حول مفهوم «الجوهر» عند سوسير تصوّرا قابلا للمراجعة والتحقّق، لكنّ الذي نطمئّن إليه ولا نراه يحتاج إلى مراجعة بقدر ما يحتاج إلى تعميق وتدقيق هو فكرة «المشروع» التي باتت السوسيريّات الجديدة تستدعيها كلّما خاضت في طبيعة فكر سوسير المتطوّر، وإنّ ما تنماز به مقاربة سوسير عن مقاربتي رومان ياكبسون وأوجين كوزيريو يتجلّى من وجوه، لعلّ أهمها ارتباط البحث عن الجوهر (المزدوج) للّغة، عند سوسير، ضمن مشروع يروم التأسيس لعلم عامّ، في المقابل من عناية عابرة بهذا الجوهر، عند ياكبسون وكوزيريو، اقتضتها مناسبة علميّة خاصّة.

بيبليوغرافيا:

- دو سوسير، فرديناند. (2021) *نصوص في اللسانيّات العامة* (تحقيق، سيمون بوكي ورودلف أنغلر). (مختار زواوي، ترجمة). ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية – ناشرن، بيروت.
- Abbott, B. (2010). Reference. Oxford, Oxford University Press.
- Banjo, M. (1974). Semantics 1: Sense and Reference. Dorderecht, D. Reidel Publishing Company.

- Benveniste, E. (1966). Problèmes de linguistique générale 1. Paris, Gallimard.
- Berger, A. (2002). Terms and Truth. Reference Direct and Anaphoric. Cambridge, the MIT Press.
- Biro, J., & Kotakto, P. (1995). Frege; Sens and Reference. One Hundred Years Later, Berlin, Springer.
- Bouquet, S. (1997). Introduction à la lecture de Saussure. Paris, Payot.
- Carl, W. (1994). Frege's Theory of Sense and Reference. Its Origin and Scope, Cambridge, Cambridge University Press.
- Coseriu, E. (2011). Le langage : diacriticon tes ousias. Dix thèses à propos de l'essence du langage et du signifié, in D. Keller & al., Percevoir : monde et langage. Invariance et variabilité du sens vécu, Sprimont, Mardaga.
- Donnellan, K. (2012). Essays on Reference, Language and Mind. ed. J. Almong & P. Leonardi, Oxford, Oxford University Press.
- Eco, U. (1980). Segno. Milan, Arnoldo Mondadori Editore.
- Eco, U. (1988). Le signe. (J. M. Klinkenberg, tr.). Paris, Labor.
- Enfield, N. J., & Stivers, T. (eds). (2007). Person Reference on Interaction. Linguistic, Cultural and Social Perspectives. Cambridge, Cambridge University Press.
- Frege, G. (1892). « Über Sinn und Bedeutung », Zeitschrift für Philosophie und philosophische Kritik, n° 100.
- Frege, G. (1970). Fondements de l'arithmétique. (C. Imbert, tr.). Paris, Seuil.
- Gautier, L. (2005). « Entretien avec M. de Saussure, 6 mai 1911 », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 58.
- Godel, R. (1957). Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale. Genève, Droz.
- Heidegger, M. (2008). La logique comme question en quête de la pleine essence du langage. (F. Bernard, tr.). Paris, Galimard.
- Hilgert, E., & al. (2020). Res per nomen VII. Lexique et Référence. Reims, Epure.

- Hottois, G. (2002). Penser la logique, Une introduction technique et théorique à la philosophie de la logique et du langage. Bruxelles, De Boeck.
- Jakobson, R. (1965). « À la recherche de l'essence du langage », in Diogène, vol. O, n° 51.
- Katz, J. J. (2004). Sense, Reference and Philosophy. Oxford, Oxford University Press.
- Klement, K. C. (2002). Frege and the Logic of Sense and Reference. London, Routledge.
- Kripke, S. (1993). Reference and Existence. Oxford, Oxford University Press.
- Lévi-Strauss, C. (1958). Anthropologie structural. Paris, Plon.
- Lo Piparo, F. (2007). « Saussure et les Grecs », Cahiers Ferdinand de Saussure. n° 60.
- Mallon, R., Machery, E., Nichols, S., and Stich S. (2009). « Against Arguments from Reference », Philosophy and Phenomenological Research, vol. 79, n° 2.
- Martin, R. (2016). Linguistique de l'universel. Réflexions sur les universaux du langage, les concepts universels, la notion de langue universelle. Paris, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres.
- Perry, J. (2019). Frege's Detour. An Essay on Meaning, Reference, and Truth. Oxford, Oxford University Press.
- Rastier, F. (2020). Introduction. Sémiotique de la culture et sciences de la culture. dans A. Guillaume & L. Jurts-Wöste, Faire sens, faire science. London, Editions ISTE.
- Rastier, F. (2020). Saussure au futur. Paris, Les Belles Lettres.
- Récanati, F. (1993). Direct Reference. From Language to Thought. Oxford, Blackwell.
- de Saussure, F. (1993). Troisième cours de linguistique générale (1910-1911) d'après les cahiers d'Emile Constantin. E. Komatsu (ed.), Tokyo, Pergamon
- de Saussure, F. (1994). Lettre à Gaston Paris (30 déc. 1891), in M.

Décimo, « Saussure à Paris », Cahiers Ferdinand de Saussure. n° 48, pp. 78-79.

- de Saussure, F. (2002). Ecrits de linguistique générale. texte établi et édité par S. Bouqquet et R. Engler, Paris, Gallimard.
- Sperber, D. (1982). Le savoir des anthropologues. Paris, Hermann.
- Textor, M. (2011). Frege on Sense and Reference. London, Routledge.
- Utaker, A. (1989). « Pour une ontologie du langage. Wittgenstein et Saussure », Les papiers du Collège international de philosophie. n° 22
- Wittgenstein, L. (1961). Tractatus logico-philosophicus suivi de Investigations philosophiques. (P. Klossowski, tr.). Paris, Gallimard.
- Wittgenstein, L. (1993). Tractatus logico-philosophicus. (G. G. Granger, tr.). Paris, Gallimard.